السلوك الجنسي موضوعا اثنوغرافيا في كتب رحالة وجغرافيين عرب ومسلمين حتى نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي

أ.م.د. عامر عجاج حميد
كلية التربية الاساسية/ جامعة بابل

Sexual behavior An ethnographic theme in the books of Arab and Muslim travelers and geographers until the end of the ninth century AH / 15th century AD

Ass. Prof. Dr. Amer Ajaj Hamid
College of Basic Education\ University of Babylon
Amer_1900@yahoo.com

Abstract

The ethnography is the descriptive study of the lifestyle, traditions, values, tools and arts of the Mughnin community, Within a specified time period. The research deals with a specific ethnographic theme which describes the sexual behavior of different nations and in Arab and non-Arab cities over several centuries. It also deals with the stones and plants and their role in sexual behavior according to the understanding of travelers and their culture at the time. The research relied on travel books and books of description and analysis of trips until the ninth century AH.

Keywords: behavior, sex, ethnography, books, travel, geography, Arabs, Muslims.

الملخص

تناول الرحالة المسلمون موضوعات مختلفة في رحلاتهم اثناء تجوالهم شرقا وغربا لدواع متعددة، فوصفوا الاماكن والشعوب من منطلقات ودوافع شتى، فتناولوا المدن وخططها، الشعوب وعاداتها، الاقتصاد والجغرافيا، وسواها من الموضوعات، اما الاثنوغرافيا فهي الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموع التقاليد والقيم والادوات والفنون لدى مجتمع معين، خلال فترة زمنية محددة. يتناول البحث ثيمة اثنوغرافيا محددة وهو وصف السلوك الجنسي لدى امم مختلفة وفي مدن عربية وغير عربية على امتداد قرون عدة. من خلال تتبع جغرافي لا يزعم البحث تناول كل الجوانب الخاصة بالموضوع فذلك يحتاج الى دراسة اوسع، ويتناول ايضا الاحجار والنباتات ودورها في السلوك الجنسي حسب فهم الرحالة وثقافتهم آنذاك. اعتمد البحث على كتب الرحلات وما كتب من وصف وتحليل للرحلات حتى القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

الكلمات المفتاحية: سلوك، جنس، اثنوغرافيا، كتب، رحالة، جغرافيا، عرب، مسلمين.

المقدمة

كيف يمكن تناول موضوع الجنس في اي جانب من جوانبه دون حرج؟ فالذهنية التقليدية تحاول الهروب من تناول مثل هكذا موضوع ومسوغات مثل العيب او الخجل او عدم ضرورة التطرق الى مثل ذلك تكون هي السائدة.. لكننا يمكن طرح سؤال آخر.. هل ان جوانب الجنس لم تتم مناقشتها في تراثنا العربي الاسلامي؟ الجواب هو لا.. فقد تناولت كتب الفقه هذا الموضوع دون حرج وبحثت في تفاصيله لأسباب تتعلق بكونه جزءا مهما من الحياة اذا لم تكن ذاتها استمرت لولا وجود الجنس... زد على وجود الفاظا صريحة للجنس في نصوص عقود الزواج الشرعية للفقهاء، اذ تتضمن الفاظاً جنسية غاية في الصراحة مثل انكحتك ومتعتك... كذلك نجد هذه الالفاظ في نصوص شعرية او نثرية كثيرة.. بل ان كتبا عدة الفت موضوعها الجنس منها: نزهة الالباب فيما لا يوجد في كتاب؛ لشهاب الدين احمد التيفاشي ت 681هـ/1283م، والروض العاطر في نزهة الخاطر لابي عبد الله محمد بن محمد النفزاوي (ت:حوالي822هـ)، وكتاب الايضاح في فوائد النكاح لجلال الدين السيوطي (ت/911هـ)، وكتاب رجوع الشيخ الى صباه في القوة على الباه ل:احمد بن سليمان(ت/940هـ)، وسواها من الكتب.

وهي كتب في الجنس للمتنعمين غالبا بقصد طلب الاثارة في مجتمع لم يكن الكتاب متوفرا فيه قبل اختراع الطباعة، لكن معالجته من جانب كيفية تناوله من قبل الرحالة يهدف الى مراقبة ومحاولة تحليل كيف نظر اولئك الرحالة الى هذا الموضوع، اذ بدا ما يكتبونه هجاءً لقبائل او مدن مارست فعلا جنسيا بطريقة مخالفة لما اعتيد عليه من المركزية الفقهية الاسلامية دون النظر الى عادات اهالي البلدان والمدن البعيدة او المنعزلة خارج الاطر التي تم التعارف عليها في الفقه الاسلامي، او العادات الاجتماعية التي اعتاد عليها الكاتب الجوال في اصقاع دنياه آنذاك. لا يتضمن البحث الشعر الذي اورده المؤلفون من ما يعرف بالأدب المكشوف، والذي يمكننا ان نجده في هذه المدونات مثل ما اورده ابن فضل العمري في مسالك الابصار مثلا، وهي قصائد مطولة فربما يكون مجاله في الادب. كذلك لا يمكننا الزعم ونحن نكتب بحثا محدد الصفحات ان نقول انه قد تم تغطية كل جوانب البحث فربما يكون بحثا كبيرا اخر يمكنه تغطية كل الجوانب لكننا حاولنا تغطية الموضوع طبقا للأمكنة وما نقله الرحالة عن اثر الطوالع والاحجار والنباتات والطلاسم فيما يخص الموضوع.. وتوجد جوانب اخرى لم يتم التطرق اليها.

يمكن القول ان البحث في اغلبه يبحث في النساء وكيف تم النظر اليهن من قبل الرحالة فهل تم الامر بموضوعية ام انها انطباعات عابرة ؟وكم اسقط الرحالة من فهمهم للجنس ومن المفترض انهم يفهمون السلوك الجنسي الصحيح او الخطأ طبقا لثقافتهم الاسلامية وطبائع مجتمعاتهم ثانيا.

ليس من واجب البحث تقديم تقويم قيمي بل هدفه الاول عرض انطباعات الرحالة.. كانت المدن متنوعة وعلى مساحة واسعة من شرق اسيا والهند الى افريقيا فمن الطبيعي ان تختلف ثقافات الناس في سلوكهم الجنسي وقد يكون مسحا للسلوك الجنسي في العصر الحالي بإمكانه اعطاءنا صورة مقارنة عن هذا السلوك آنذاك ومدى تغيره او ثباته. لكنه لا يمكن ان يذهب بعيدا عن الاستعراض او الجمع فقط لحيثيات هذا السلوك ليس بمعنى التصديق الكامل لما تم تدوينه بل لأنها تمثل المصادر المتوفرة على الاقل باللغة العربية لهذا السلوك. قد يحمل الاهتمام بهذا الموضوع صورة النظر اليه بغرابة في الاختيار لكن قلة الاهتمام بهذه الجوانب التي هي جزء من الحياة الاجتماعية دعت للبحث فيه.

لا يمكننا التغاضي عن فكرة ان النظر في الموضوع والكتابة فيه والاشارة اليه قد يمكن ان يعكس جزءا من السلوك الجنسي او النظر اليه من قبل الرحالة ذاتهم، فما الكتابة الا انعكاس لأسلوب تفكير الكاتب.. اما العجائبي في هذه الكتابة فنجده منعكسا في الكتابات فاي حديث عن الجنس كونه سلوك يتسم بسرية ما! فكيف يكون الامر وانت تكتب عن الجنس في غير مجتمعك ولمجتمعات قد تكون منعزلة ومتفردة في عاداتها والعادات؟ والسلوك الجنسي احداها.

هل كان الحرمان الجنسي للرحالة في اماكن غريبة وبعيدة له انعكاس في كتاباتهم المتعلقة بالجنس؟ وهل اخفوا بعض الملاحظات؟ هل كتبوا عن تجاربهم بصراحة؟ لا يمكننا الاجابة بنعم ولكننا نفترض اخفائهم الكثير فليس كل ما نقوم به من اعمال ندونه ليس في مجال الجنس فقط بل في ممارسات الحياة الاخرى العادية.

كيف كان ينظر الى المرأة من خلال ما كتب؟ هل انصفت المرأة.. ومتى انصفت المرأة!

كيف كان الكلام عن العري؟ او المثلية الجنسية؟ ان مجموع هذه الاسئلة يمكنها ان تفتح المجال للنظر في جوانب متعددة من الرحلات التي استمر بعضها لأعوام، لذا كان من الطبيعي ان يتناول الرحالة جوانب من هذا النوع.. ان عدم الدقة او وجود الانطباع الذاتي لا الموضوعي نفترضه في جميع ما دوّن.. لكن الكتابة فيه لا تخلو من محاولة فهم لاحد جوانب السلوك الاجتماعي وعرضه، مع محاولة في فهم وتحليل ما كتبه بعض الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين.

لا يمكن لبحث بمثل هذا الحجم ان يتناول موضوعا بهذه السعة، لذا فان ما تم تناوله يشكل جزءا من الموضوع المدروس.

تعد التصورات التي وصلتنا عن الشعوب الاخرى والقبائل البعيدة عنا واحيانا القريبة، لكن المنعزلة جغرافيا؛ يكون تصورات ذات معايير قيمية نحتقر من خلالها احيانا او نرفع من هذه الاماكن او الشعوب، والامر يكون مع الممارسات العادية التي نحاول مقارنتها

مع ممارساتنا، فما طابقها فهو المثال والصحيح وما خالفها فهو الخطأ وغير الصواب، اما في مجال الجنس الذي يتسم بخصوصية كونه يكون في ذهن الناس مرتبطا مع العيب والسر والفضيحة فان ما يؤخذ من انطباع عن شعب ما كون افراده يسلكون في طريقتهم بالتعامل مع الجنس بطريقة يرونها غير سوية حسب فهمهم، فان ذلك يكون مدعاة للسخرية العالية وموضوعا للأقاويل التي تقلل من شان المكان او البلاد التي يحدث ذلك فيها. ان الصور التي تقدمها مدونات الرحالة في هذا المجال متنوعة فهل كانت دقيقة؟ ام انها كانت ذات طابع قصصي وحكائي؟ ان الصور عن الذات والاخر والتي تستمد قوتها باستخدام المركزية الدينية اي القيم التي تستمد الايمان بها كونها الحق الى الابد[1].

المبحث الاول

الرحلة والأثنوجرافيا

كان الانسان قد بدا في التطلع الى الافاق البعيدة منذ عهود موغلة في القدم ولم يتوقف عن الحركة والتنقل يوما، وارتحل قاصدا تحقيق اهداف متنوعة من البحث عن عيش افضل الى تفادي الاخطار، الى ان ارتحل بدافع الملاحظة وحب الاستطلاع والفضول او لغرض التجارة او لدوافع دينية او سياسية او علمية او لدوافع اخرى متنوعة، وفي عصور خلت من وسائل الاتصال الحديثة، كانت الرحلات وسيلة للاتصال وتبادل الخبرات وانتقال الافكار وغير ذلك، ولو تناولنا الرحالة العرب المسلمين فإننا نجدهم مساهمين في توفير معارف تاريخية وجغرافية واجتماعية وثقافية كبيرة، فقد جابوا الافاق شرقا وغربا، اما طرائق كتابة الرحلات فقد تنوعت في اساليبها من السرد القصصي الى الحوار الى الوصف والسرد في بعضها يقدم متعة ذهنية كبرى[2]. والرحلات ايضا تجوال في فضاءات غريبة يتم اكتشافها تدريجيا بعد اختراق الافاق والاصقاع والمسالك والممالك والتوغل في الاقطار النائية والمجهولة مع ما كان يصاحب ذلك من مفاجئات[3].

ان كل ما في العالم موضوع للعجب عند المتأمل فيه الا ان الاعتياد عليه والانس به يذهب الدهشة، ومن هذ المنطلق نظر الرحالة العرب الى الامر، فالعجيب جزء مهم من الرحلات ومركز اهتمام الرحالة والمتلقي نظرا لارتباط السفر بتتبع الاختلاف ورصد المخالف، لذا فان ادب الرحلة بحث في العجيب والغريب والخارق، وهو محاولة لإدراك الخصوصيات وللتعرف على الاخر في ميدانه ومكانه، وتزيين الرحالة نصوصهم ببعض العجائب ليس استجابة لذوق القارئ فحسب وهو ميال بطبعه الى الغريب والعجيب، بل كون ما يراه ويسمعه غريب بحسب وجهة نظره، فنجد بعض الرحلات تبتدئ عناوينها بالإشارة الى العجيب فابن بطوطة يعنون رحلته بـ: "تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار"، وزكريا القزويني يعنون كتابه بـ: "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات"[4]، وعلى الرغم من اتهام الخيال بإحداث تغييرات بين الصورة في الواقع وكما هي في الكلمات الا ان الامر يتجاوز البحث في امانة نقل العجيب الى توظيف الخيال بوصفه اداة وتقنية تستهدف اقناع المتلقي بجدوى تصديق العجيب، فدورها التضخيم والمبالغة لتكبير الصورة وتقريبها اكثر من عين المتلقي، فالوصف بالكلمات يزيد امرا ما غرابة وعجبا[5].

احتوت كتب الرحالة على الكثير من الوقائع والحوادث التي تسمح بتوسيع دائرة الحلم وتخطي العقل الى ما وراءه، وبذلك تصبح الرحلة نتيجة ما تحتوي عليه من اغراب وتعجيب بمثابة سفر باتجاه الاقاصي والنهايات ونصوص الرحالة العرب عبارة عن فضاءات تتكشف فيها مقدرة الخيال على توسيع دائرة الممكن المحتمل وفيها تتكشف ايضا كيفيات غزو الخيال والتوهم منطقة اللامعقول حتى انه لا يمكن النظر في الكلام بعده مصدقا به او غير مصدق لأنه يكرس ما هو فريد وعجيب ومهيب..[6]

[1] ابراهيم/عالم القرون الوسطى في اعين المسلمين/ 21.
[2] قنديل/ادب الرحلة في التراث العربي / 68.
[3] اليبوري/الاخر في الرحلة المراكشية لمحمد بن الموقت/212.
[4] التوزاني/الرحلة وفتنة العجيب بين الكتابة والتلقي/12.
[5] نفسه/68.
[6] الخامسة/العجائبية في ادب الرحلات، رحلة ابن فضلان انموذجا/75.

الأثنوجرافيا كلمة معربة تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم والادوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة او مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة[1].

ويعرفها جميل صليبيا "علم اجتماعي يصف احوال الشعوب، ويدرس انماط حياتهم، ومختلف المظاهر المادية لنشاطهم في مؤسساتهم، وتقاليدهم، كالمأكل والملبس، وغيرها[2]، فموضوع الأثنوجرافيا يتعلق بصورة اساسية بوصف قيم الناس، وحياتهم اليومية، والعلاقات الاجتماعية، ويحصل الاثنوجرافي على المعلومات بطرق مختلفة تشمل الحديث مع اعضاء المجتمع وعلى الاثنوجرافي ان يندمج مع المجتمع ليفهم ثقافتهم.، ويستطيع القارئ لنصوص الرحلات ان يكتشف ما تزخر به من نصوص اثنوجرافية ومدى تنوع مادة الرحلات من ناحية الموضوع والزمان والمكان[3].

وكان للرحلة اثرها في الكشف الاجتماعي فقارنت بين النظم الاجتماعية للبشر الامر الذي جعل المؤرخين يرون ان تلك المعرفة قد وضعت الجذور الاولى لمادة الأثنوجرافيا فاعتناؤها بالنظم الاجتماعية او علم الانسان او علم الجغرافيا البشرية اكد حقيقة مؤداها ان الرحلة كشفت العالم والانسان فوقفت على احوال كثير من الامم والشعوب[4]، تزخر مؤلفات الرحالة بالنصوص التي تحتوي مضمونا أثنوجرافيا فتنوعت مادتهم في هذا المجال فاهتم البعض بوصف الاقاليم وطبائع سكانها ومنهم من وصف العادات والتقاليد[5].

وينتهي الامر في الغالب بالرحالة الى تدوين مذكراته عن الرحلة او ان يحتفظ بوقائعها وحوادثها، في ذاكرته، ويكتفي بروايتها لمن يرغب بالاستماع اليها. وادب الرحلات هو رواية التفاعل بين الذات والاخر، ويترك فيه للرحالة حرية التعبير الكاملة وان يطرق من الموضوعات ما يراه هاما، وليس بالضرورة ان كل ما يدونه الرحالة يتصف بالموضوعية، وربما يكون ذاتيا أي يتميز بتحيز ثقافي صارخ، فالعوامل الشخصية لها دور في تشكيل نوعية اغلب روايات الرحالة، وقد يسمع اثنان موضوعا واحدا لكنهما يعبران عنه كل بطريقته وفهمه[6]. وفي الغالب نظر الرحالة الى ثقافة الغير في اطار "التزيين والتقبيح"، لذا نجد ان التحيز لثقافة الذات كانت دائما موجودة في كتاباتهم [7].

فقيم الكاتب تمثل الحقيقة اما قيم الاخر فمحتقرة ومدنسة ويلزم تطهيرها من النجاسة والوثنية، فالشعور الديني هو الذي يتصدر في مجال النظر الى هذا الموضوع دون اي مجال اخر، لذا كانت المواقف والاحكام تقوم على فكرة التفاضل والتراتب التي تعلي من شان الذات وتخفض من شان الاخر[8].

المبحث الثاني

نظرة عامة في ما كتب عن أثنوجرافيا السلوك الجنسي في المدن والبلدان والقبائل

نحاول في هذا المبحث القاء نظرة على ما دونه رحالة وجغرافيون عن الموضوع المدروس، تناولوا فيه السلوك الاجتماعي في مجال الجنس ويشمل بلدانا ومدنا في المشرق العربي وشرق اسيا ووسطها وفي افريقيا العربية وغير العربية.

توفر المدن امكنة جيدة للرحالة والجغرافيين لتدوين انطباعاتهم بصورة عامة عن الامكنة والخطط والاحياء والاسواق والجوامع وعن ازياء الناس بالإضافة الى موضوعات اخرى، ويعزى هذا الامر الى الاقامة التي نفترضها لهؤلاء في تلك المدن ولمدد متفاوتة، حيث يمكنهم من خلالها رصد عادات اهل تلك المدن وسلوكهم الاجتماعي، ويمكننا القول ان كل ما دونه اولئك ناتج عن ملاحظاتهم او ما استنتجوه نتيجة السماع او الانطباعات الراسخة الشائعة والمتداولة والمكررة في العادة على السن الناس والتي اعتيد عليها فتحولت

[1] فهيم/ادب الرحلات/.63.
[2] صليبيا/المعجم الفلسفي/36.
[3] درنوني وعلي رحماني/فصل المقال فيما بين ادب الرحلة والاثنوغرافيا من اتصال/267.
[4] الشقران/خطاب ادب الرحلات في القرن الرابع الهجري/19.
[5] فهيم/ادب الرحلة/45.
[6] نفسه/ 63.
[7] نفسه/178.
[8] نفسه.

الى اشبه ما تكون بالحقائق، حيث ان التحقق مما يسم اهل مدينة ما لا يمكن تأكيده من جهة محايدة قدحا او مدحا... وهكذا نجد ولا نزال وصف اهل مدينة ما بالبخل او بالحمق او بالعناد او بالكرم، فاذا قلنا ان اهل المدينة الفلانية يتصفون بالجمال او ان نساؤهم فاتنات فهذا ناتج عن الاختلاط معهم ورؤيتهم، اما وصف عاداتهم فلا يكفي ان نسكن في مدينة شهرا او شهرين لنصف سلوكهم الاجتماعي بعامة او سلوكهم في مجال الجنس بخاصة، لان الرحالة موضوع البحث ربما يكتبون عن تجارب شخصية او مشاهدات عابرة او عما خبروه من قراءات من مدونات اخرى..

من جانب اخر ان التعامل مع الغرباء يكون مختلفا في هذا المجال فما يكبت ويكون سريا من سلوك بسبب الخوف من الفضائح في مجتمعات مغلقة ومحافظة مع من يعرفونهم قد لا يكون كذلك مع غرباء عابرين، حيث يتم التعامل بصورة مغايرة واكثر انفتاحا مع الغرباء، لذا يكون الانطباع كما يدونه الرحالة من وصف مختلفا عما قد يكون سائدا ومعروفا. كما ان المدن الكبيرة تكون بطبيعتها ملجا ومسكنا لمختلف الطبقات الاجتماعية وقد يرافق الطبقات الدنيا عادة الابتذال بسبب الفقر او الغنى وما يرافقها من بطر، فيكون الانطباع عنها اي عن المدينة واهلها عاما ولا يتم تحديده بفئة او بجماعة.

ففي كلامه عن مدينة بغداد والحديث عن بعض ما رآه من صفاتها يهجو ابن الفقيه الهمداني حرها القاسي وموضوعات اخرى، ففي المجال الذي نحن بصدده نجده يرصد ظواهر مدينة كبيرة ورغم ما يعرف عنها من انها عاصمة الخلافة الا ان بعض سلوك اهلها لم يكن يعجبه وفي هذا الخصوص قال: "يموت أهلها في الصيف حرقا، وفي الشتاء غرقا. الميت فيها مطروح لا يجد من يحمله، والمسكين بها ما يصيب أحدا يتصدق عليه... شيوخها يتصافعون وشبابها يتناهدون. وصبيانها يؤاجرون. ونساؤها يزنون ويساحقون. البغاء منهم غير منكر، والقرون من رجالهم لا تستر. وهم مع هذا يتامى أمير المؤمنين

.وقد قال فيهم الشاعر:

أذم بغداد والمقام بها... من بعد خبرة وتجريب
ما عند أملاكها لمختبط... خير ولا فرجة لمكروب
يحتاج باغي النوال عندهم... إلى ثلاث من بعد تثريب
كنوز قارون أن تكون له... وعمر نوح وصبر أيوب
قوم مواعيدهم مزخرفة... بزخرف القول والأكاذيب
خلوا سبيل العلى لغيرهم... ونافسوا في الفسوق والحوب

وقال آخر:

قد كره قوم من العلماء السكنى ببغداد والمقام بها وعابوها وذكروا أنها دار فتنة لكثرة ما فيها من الفساد ومن أنواع الفجور وشرب الخمور والزنى وكثرة الربى[1].

ويتناول ايضا ما رآه في مدن وسط اسيا، وهو يرى اختلافا في سلوك وطقس هذه المدن وما اعتاده، فعن مدينة "حيوس"

تقرب من الشاش وهي كما وصفها: كبيرة أيضا لكنه يرى اهلها "بغير دين" ويصفهم بـ: "شرار خلق الله يغير بعضهم على بعض ويقتل أقدرهم ضعيفهم ولا يأمن الأخ أخاه ولا الوالد أبناءه. يأكلون جميع الحيوانات"، ثم يهجو سلوكهم فيقول: "الزنى فيهم ظاهر، يدخل الواحد منهم إلى منزل الآخر فيفترش حرمته وهو ينظر إليه لا يمتعض من ذلك ولا ينكره. وليست لهم شجاعة وفيهم جمال وأكثر رجالهم مؤنثون ويشربون الدم"، ولا نعلم تحديدا مدى دقة وصف الهمداني لما رآه في هذه المدينة فنرى ما يزعمه من انتشار الزنى لديهم لكنه يصف الجمال "حسب مقاييسه: لديهم اما تأنث الرجال فهي اشارة ما الى ما قد يتبعه من سلوك جنسي منحرف فجمعه الجمال والتأنث في رجالهم يوحي بذلك.

[1] ابن الفقيه/ البلدان/ 356.

اما مدينة (دي) فمع كونهم مسالمين ويدفعون الاتاوة لمن يتغلب عليهم، وهنا نجد تقييما مهما يتناوله هو مدى عدوانية اهل مدينة او مسالمتهم، الا انهم من الجانب الاخر يذكر ما يزعمه من شبق فيهم فهم حسب قوله: "ينكحون كل ما لحقوه من امرأة أو غلام أو حيوان" والوصف بالغ الغرابة فاذا قبلنا من نكاحهم للبشر فذكر الحيوان يدعو للعجب. اما مدينة "سور" فـ: "لهم بأس شديد ونكاية عظيمة ولهم أوصاف يعرفون بها في الحرب ولا تكاد تخطئ. وفي رجالهم جمال وفي نسائهم قبح. وهم ينكرون الزنى ويقتلون من يفعله من الذكر والأنثى. قد يبدو مدحا ما وصفه بهم من انكارهم للزنى لكنه يتناول قبح النساء وجمال الرجال وقد يكون انطباعا شخصيا عابرا..

اما اهل مدينة (جريسم) فهم اهل غارة على ما يجاورهم ومنها مدينة سور وهم اهل وحشية يقطّعون اسراهم ويطبخونهم لياكلوه" وقال عنهم: "وإذا خلا القوي منهم بالضعيف نكحه".

اما اهل مدينة (اغرس) فمعتدلوا الطباع "لا يرون الزنى ويجتنبون الفواحش"، وهنا نجد اوصافا يكررها الهمداني يتناول فيها شراسة ومسالمة اهل المدن مع سلوكهم الجنسي الذي يعتمد على تحليل او تحريم الزنا نكاح الذكور او عدمه والغيرة على العرض والحفاظ عليه وتأنث وجمال الرجال.. وهي ملاحظات قد يكون بعضها مستمد من ميول ابن الفقيه الجنسية. اما مدينة (كريشم) فمع صولتهم وشجاعتهم فذبائحهم لا يذكونها لكنهم عراة كالبهائم[1].

و"يلقى الرجل المرأة في الطريق فيجامعها والناس ينظرون إليه"، وهنا نجده يصف سلوكا غير مستساغ من عدم تستر من يفعل فعلا جنسيا عن الاخرين ويراه غريبا ولا نعلم ان كان مقبولا في تقاليدهم آنذاك.

اما مدينة (دكس) فأهلها شجعان ولهم صبر على القتال ولهم غنى ويتعاطف بعضهم على بعض ويخرج بعض تجارهم للمتاجرة مع "بلاد الاسلام" ومدح ايفائهم بالعهود الا ان الزنا بينهم غير مستنكر[2]..

اما اهل مدينة (كيساه) قرب بلاد الخزر وهم من اشر خلق الله حسب وصفه إذا دخل الغريب مدينتهم نكحوه. وإذا وجدوا رجلا مع غلام جعلوا الغلام له أبدا وهنا نجده يتناول ما يتصرفون به مع الغرباء كصفة فيهم ولم يحدد فيما اذا كان الغريب رجل او امرأة. وهم يأكلون الميتة. ومن الملاحظ ان ابن الفقيه مع تأكيده على جوانب معينة من حياتهم كأكلهم ومدى مطابقته لشروط الحلال والحرام او صفاتهم من شجاعة او عدم شجاعة فان سلوكهم الجنسي كان موضوعا مميزا في النظر الى سلوكهم العام، ففي تناوله لعدة مدن نجده لا يتهيب من الخوض في وصف عاداتهم الجنسية كموضوع مركزي، واذا كان الكاتب يدون ما كان مؤثرا فيه فان هذا الجانب كان مركزيا في كتاباته، او ربما يكون وصفه لذلك كونه يختلف عما الفه من عادات في هذا المجال. ويصف وجوههم بالقبح. واجسادهم بالقصر. ويولع ابن الفقيه بذكر المتضادات بين الرجال والنساء في بعض المدن التي يزورها فاذا كانت مدينة سابقة قد جمعت بين جمال الرجال وقبح النساء فان مدينة "داني" رجالها طوال ونساءها قصار. ولعمري فان الامر كان كذلك في كل المدن وعلى مر الاجيال والعصور. لكنها ملاحظة ذكرها ابن الفقيه.[3].

اما مدينة (سكوب) فأهلها يتكلمون السريانية ولا نعلم ان كان ابن الفقيه يعرف ويفهم هذه اللغة، وهم شجعان ذوي اقدام ويصف نساؤهم بالشجاعة وهن يقاتلن معهم. لكنه يصف نساءهم بممارسة الزنى كطبع مركب فيهن فيقول: "الزنى في نسائهم طبع مركب، تنظر الواحدة منهن إلى الرجل الذي تشتهيه فتقبض عليه ولا يملك شيئا من نفسه وتمضي به إلى جبل بالقرب من المدينة فيه غيران وكهوف فتجعله في بعض تلك الغيران ولا يسهل له الخروج. وتجيؤه بجميع ما يحتاج إليه. ولا يجوز لزوج– إن كان لها– أو أخ أو ولد منعها من ذلك. وكذا الرجل لا يمكنه الخلاص من يدها إن كانت امرأة أو ولدا وغير ذلك من الأهل. فمتى يأبى عليها قتلته. وكذلك

[1] نفسه/644
[2] نفسه/٦٤٥.
[3] نفسه/646

[إن] منعها منه مانع، استنجدت من النساء اللواتي على مذهبها فقاتلن معها حتى يبلغن لها ما تريد لأنهن على مذهب واحد فبعضهن بعضا. فإذا ضجرت منه أو ملته أو هويت سواه صرفته إلى منزله[1].

ويتناول البكري في هذا الشأن الصقالبة فيقول..." ونساؤهم إذا نكحن لم يفجرن إلا أن البكر إذا أحبت رجلا صارت إليه وأقامت عنده شهوتها، فإذا تزوجها الزوج فوجدها عذراء قال لها: لو كان فيك خير لرغب فيك الرجال ولا خترت لنفسك من يأخذ عذرتك، فيرسلها ويبرأ منها[2].

ويتناول كاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري هذا السلوك في مدن افريقية فيكتب عن مدينة تدعى (يرسني) قال انها: "مدينة كثيرة الخيرات ولها معدن للذهب عظيم معروف في بلاد السودان. ومن أعجب شيء في هذه المدينة أن فيها معزا قصارى وعندهم شجر معلوم فتحتك هذه المعز إلى تلك الأشجار فتلقح من غير ذكر، ويذبحون ذكران المعز ويستحيون الإناث لاستغنائهم عن الفحل، وهذا معلوم عندهم غير منظور"؛ حدّث بذلك من دخل بلادهم من التجار والثقات، وهذا مثل جزيرة النساء التي ذكر المسعودي. ومن أعمال مدينة (غانة) ونظرها مدينة (سامة)، ويعرف أهلها بالبكم، بينها وبين غانة مدة أربعة أيام. وهم يمشون عراة إلا أن المرأة تستر فرجها بسيور مضفورة، ونساؤهم يوفرن شعر العانة ويحلقن شعر الرأس. حدث رجل ثقة ممن دخل تلك المدينة إنه رأى منهن امرأة وقفت على رجل من العرب له لحية عظيمة طويلة، فتكلمت كلاما لم يفهمه العربي، فسأل الترجمان عن مقالتها فأخبره إنها تمنت أن يكون شعر لحيته فى عانتها، فغضب الأعرابي وأوسعها سباً[3].

اما عن اهل مدن اخرى ففتنوا بصفات راها سيئة واي مدينة لا تفتن بإعمال سوء؟ فسلوك الانسان ليس سويا على الدوام فهو حسب زعمه رأي عن هذه المدن كالتالي: "فرأيت أهل البصرة قد فتنوا بخصلتين: الخضخضة (الخضخضة المنهي عنها في الحديث: هو أن يوشي الرجل ذكره حتى يمذي.

وسئل ابن عباس عن الخضخضة فقال: هو خير من الزنا ونكاح الأمة خير منه، وفسر الخضخضة بالاستمناء، وهو استنزال المني في غير الفرج، وأصل الخضخضة التحريك)[4] والقدر. وفتن أهل الكوفة بخصلتين: شرب المسكر وتأخير السحور. وفتن أهل الشام بخصلتين: طاعة الظَلَمَة، وأخذ الجوائز، وفتن أهل مكة بخصلتين: تزويج المتعة والدرهم بالدرهمين. وفتن أهل المدينة بخصلتين: حب السماع وإتيان النساء في الأدبار"[5].

لاشك ان الرحالة فيما كتبوه لم يشاهدوا جميع ما دونوه عيانا وكان بعض ما كتبوه هو ما سمعوه وما روي لهم، لذلك نجد ان ابن المجاور يدون عما سمعه عن اهل مكة في "سالف الازمان"، فكانت بعض نساءها تحاول تحصيل الذهب وتنتظر عن طريق اكراه بعض نساءها على البغاء، "فأما ان تنتظر الفَرَجْ او تبذل الفرج للرجل والحرج في هرج ومرج"، ويذكر ان ذلك لم يزل في عصره في عدن من الغريب وأهلها وليس هذا الفن عندهم عار بل تفخر النساء بذلك. وكذلك كان في أيام الجاهلية كل جارية لا تبذل فرجها ينكر عليها إلى أن نزلت هذه الآية: (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا فهي من ذلك العهد وعم على ذلك العهد باقون). وإذا خرج السيد والعبد والجارية إلى أشغالهم خليت المرأة في الدار وحدها حتى إنها تبرك على أربع إذ ليس لها شغل تشتغل به فيرجع بروكها على وركها عادة وألفوه إلفا. ويقال إذا تخاصم رجل وامرأته واغتاظت المرأة منه غاية الغيظ تقول المرأة لزوجها: لا شك أنك على أني أكسره، والمعنى أنك تريد أن اقعد على عجزي، فيقول لها زوجها: بالله عليك لا تفعلي ذلك[6].

---

[1] نفسه /647.
[2] البكري /المسالك والممالك/564/2.
[3] كاتب مراكشي/ الاستبصار في عجائب الأمصار/222.
[4] ابن منظور/ لسان العرب/.7/ 145.
[5] البلدان/329.
[6] ابن المجاور/تاريخ المستبصر/ 18.

وفي كلامه عن الطريق بين مكة واليمن ومسافاتها قال: "ومن مكة إلى القرين فرسخ، بناء الأمير هاشم. وإلى البيضاء فرسخين، وإلى أيدام ثلاث فراسخ، بئر حفره أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وجدده القائد الحسين بن سلامة. وإلى وادي المحرم ثلاث فراسخ ومنه يحرم حاج اليمن. وإلى فرع خمس فراسخ، أرض بني شعبة. ليس يلبس نسائهم إلا الأدم وذلك إن المرأة تأخذ طاقين من أديم تخيط بعضة إلى بعض وتقور فيه قوارة وتكتسيه فإذا مشت بان جميع بدنها من فوق ومن تحت، وإذا رأى غريب المرأة على ذلك الزي يقول لها: استري فيقول زوجها أكسها وإن كانت المرأة عريانة وهي لابسة فيقول له زوجها: اكسها فان كساها وإلا قتله لأنهم يقولون: من ستر غيره. ولم يكن في جميع العالم أصل من هؤلاء القوم ولا أسرف ولا أجرم ولا أخسر منهم في أخذ مال الحاج لأنهم يسمون الحاج جفنة الله، فإذا قيل لهم في ذلك يقولون: إذا حضر جفنة الله لخلقه أكل منه الصادر والوارد. "ونجد ما يصفه ابن المجاور لهؤلاء القوم من شدة وغلظة حتى مع الحجاج والتسويغ لذلك الفقر الذي كانوا عليه وما كانت عليه نساء هؤلاء ومن عري سببه الفقر وجدب ارضهم"[1].

ثم يتناول سلوك بعض اهالي مشارق هذه الاعمال ويعرفون بالبهيمية فيقول" وهم يرجعون في الأصل إلى آل عامر ويرجع آل عامر إلى سنحان. فإذا نزل بهم ضيف يقول له: بما تعشى؟ يقول: بكذا! وبم تغدى؟ وما يقدم له إلا ما طلب واشتهى عليهم. فإذا تعشى يقول الرجل لزوجته: روحي أكرمي الضيف! فتجيء المرأة فتنام في حضن الضيف إلى الصباح بلا خوف ولا حذر ويقوم الصبح كل يغدو إلى شغله. فإذا خطب زيد بنت عمرو وأنعم له عمرو بإجاب القول دخل زيد إلى بنت عمرو واستقضها وبات معها طول ليلته، فإذا أصبح خرج وترك نعلاه في بيت بنت عمرو فيعلم إنه رضى بها فحينئذ يعقد عقد النكاح. وإن لبس حذائه وغدا علم عمرو أن زيدا لم يرض ببنته. وهذا من أجاويد هؤلاء القوم. ومصاغهم الصفر والحديد والرصاص ولبسهم الجلود المدبوغة وجواهرهم الودع ومهرهم قطع الطريق ومنع السبل "[2]، وفي الطريق الى زبيد في اليمن يتناول منطقة تعرف باهل الشمة في "حرض" التي يقول ان ليلها طيب ونهارها حار ويتناول صفة زواجهم كاتبا عن بناتهم قبل الزواج وبعده من النص الاتي: "من يوم تدرك البنت إلى يوم تعرس لم يمكنوها من النتف بل تطول الشعرة مع طول الأيام وتربيتها إلى أن تضفرها دبوقة، ويقال إنه يدهن ويسرح ويغسل بالسدر والطين أي الشعرة. فإذا كان ليلة عرسها ضفرت شعرتها دبوقتان وتشد كل دبوقة منهما في إحدى فخذيها وتجلى على زوجها. فإذا خلا بها وقعد منها مقعد الرجل مع المرأة فحينئذ يمسك الرجل تلك الدبوقتين ولا يزال يمدهما إلى أن يقلعهما من الأصل فإذا قلعهما استفضها بعد ذلك. فإذا أصبحت من الغد يزورونها قرابتها ومع كل واحدة منهن صحن زبد فيقولون لها: كيف حالك مع الرفة فتقول: بخير كبياع الدبية. وتداوي الموضع بالزبد ليرد عنها الألم لأنه يقلع الشعر مع الجلد وهذا زي القوم."[3] .

ويتناول اهل وادي زبيد في اليمن وما رآه فيهم من طباع وقد يكون انطباعا شخصيا لكنه قام بتعميمه.

"قال عبد النبي بن علي المهدي للحاضرين: إني أتحسب من أهل هذين الواديين. قالوا: وما رأيت من عجائبه؟ قال: رأيت كل خلق الله من الرجال يميل طبعهم إلى النحولة والذكورة إلا من سكن بين هذين الواديين فإن طباعهم مائلة إلى الخنث وخصال النساء. قالوا: وبم تحقق عندك ذلك؟ قال: كل من الخلق يميل إلى ما يصلح به دينه ودنياه إلا أهل زبيد فإنهم مائلون إلى الأكل والشرب والملابس النظاف والمركوب الواطئ وشم الطيب وميل طباعهم إلى النساء اكثر من ميل طباعهم إلى الرجال. فقال بعض من حضر المجلس: ما وضعت بين واديين إلا كرجل يسكن بين امرأتين يميل إلى من مالت نفسه وسكنت جوارحه إليها. قال ابن المجاور: ومعظم رجالهم يتحدثون ويغانجون ويتمنطعون ويتقصفون تقصيف النساء في الحديث والحركة.[4]"

[1] ابن المجاور/20.
[2] نفسه.
[3] نفسه /21.
[4] نفسه /27.

واذا كان ابن المجاور ملاحظا جيدا لما سمعه وخبره عن اهالي اليمن فاننا نجده كذلك عند كلامه عن ممارسات لنساء في امكنة متعددة منها ما رآه عند نساء البربر ومن الطبيعي ان يحاول الحانق ان يعبر عن حنقه بوسائل يستطيع التنفيس عما في داخله بحركات او اشارات بعينها تكون جزءا من ثقافة المجتمع، لكننا لانعرف سبب ان تكون بعض الاشارات ذات مغزى جنسي حيث يكون لممارسة الجنس بالخصوص في حالات ان يكون خارج نطاق الاعراف والتقاليد المرعية اشارة توحي بالعار لمن مارسه بتلك الطريقة فيتناول نساء البربر فيكتب انهن عند تخاصمهن فيما بينهن "تخلع ما عليها من ثياب وتلطم صدرها وتصفق وتقفز وتسلق عيناها في وجه صاحبتها وتغدو كل واحدة منها تارة تنام وتارة تنحني وتارة تضحك وتبكي وتارة تعبس وتارة تلطم. وتنتف شعرتها تذره في الهوا وتدخل إصبعها في رحمها وتلعق صاحبتها من رحمها أو تدس إصبعها في ثقبها وتشم صاحبتها الخراء، وأي شيء ما عملت إحداهن عملت الأخرى مثل الأولى فما رأيت أوقح ولا أوسخ ولا أقل حياء من البرابر لا جزاهم الله عن الإسلام خيرا "ان اشارته توضح سلوكا ذو بعد جنسي يتعلق بأعضاء النساء مع ما يصاحبه من فعل لكنه ربما يكون مصاحبا بكلمات لم يوردها او انه لا يعرف معناها.

اما ما تفعله بعض النساء في امكنة اخرى فيورد عن نساء من الموصل وبغداد وسواها ويحدد احياء بعينها ربما تكون أحياء فقيرة اوصافا لأفعال غريبة تبدا بالصياح وتنتهي بالإشارات الموحية ومد الاصابع في الاعضاء الجنسية فيجمل ما رآه وهو مهم في معرفة اساليب التخاصم وصوره عند النساء في اماكن متفرقة يجملها معا في قوله الاتي: "ونساء بين الصورين بالموصل ونساء النفاطات ببغداد إذا خاصمت إحداهن الأخرى تصعد السطح عريانة وتقف على الطف وتضرب يدها على رحمها وتقول: إضرابي من حِرّي لبن ومن شعرتي تبن! ونساء يتربون في الخانات يسمونهم العجم كام سرواني إذا خاصمت إحداهن الأخرى تضرب إصبعها في جعصها وتشم صاحبتها. ونساء السناكمة في اليمن إذا خاصمت إحداهن الأخرى ترفع إزرتها وتقف على أربع وتقول للتي تقابلها: بالله ياستي ابصري الهلال قد طلع والخزا قد انقطع! ونساء سيوستان تخلع ثيابها وتنزل السيل عريانة تسبح. ونساء القرامطة إذا قعدت لقضاء حاجة تغطي وجهها وتكشف قماشها كله. ونساء النهروان تمدد قائمة قدام المزين ويحلق لها شعرتها، وإذا أرادت أن يحلق لها شعر أستها يدس المزين في أستها أكرة صغيرة فيها خيط ممدود وتضم المرأة شعرتها على الأكرة ويمد المزين الخيط بيده اليسرى فحينئذ تخرج شعرتها فيحلق الشعر بيده اليمنى وكذلك الرجال. ونساء الروم يدخلن الحمام مع الرجال فتدخل المرأة مع زوجها عريانة. والسماكات في الديبول فإذا تخاصمت امرأة مع أخرى تدس السمك في رحمها، والنساء اللاتي يبيعون الخضر تدس في رحمها فجلة"[1]..

اما طرق التعامل مع الجواري وكيف كن يعرضن للنخاسين في الاسواق فيقدم صورة عن ذلك وكيف ان التاجر لا يكتفي باللمس والمشاهدة بل يتعداه الى تجربة النساء في المنزل للتحقق من عيوب قد تكون فيها ويحق له ارجاعها عند بدو العيب ربما بعد ايام من شراءها ويجدها لا تعجبه لأدنى سبب ويقدم وصفا تفصيليا لأساليب عرض الجواري والترغيب به مشيرا بالقول: "تبخر الجارية وتطيب وتعدل ويشد وسطها بمئزر ويأخذ المنادى بيدها ويدور بها في السوق وينادي عليها ويحضر التجار الفجار يقلبون يدها ورجلها وساقها وأفخاذها وسرتها وصدرها ونهدها. ويقلب ظهرها ويشبر عجزها ويقلب لسانها وأسنانها وشعرها ويبذل المجهود. وإن كنا عليها ثياب خلعها وقلب وابصر وفي أخر الأمر يقلب فرجها وجحرها معاينة من غير ستر ولا حجاب. فإذا قلب ورضى واشترى الجارية تبقى عنده مدة عشرة أيام زائد وناقص فإذا رعى وشبع ومل وتعب وقضى وانقطع وطره، يقول زيد المشترى لعمرو البائع: بسم الله يا خواجا بيني وبينك شرع محمد بن عبد الله فيحضرا عند الحاكم فيدعى عليه العيب"، فهكذا كان الامر يتم ويقدم ابن المجاور هنا صورة فريدة لسوق الجواري في اليمن، والغريب ان يتم ذلك بشهادة القاضي الذي لانشك في انه يمتلك قواعد ونصوصا يسير على هداها فيزعمون العيب على الجارية بعد ان يعاشروها معاشرة الازواج وقد يتكلمون كلاما يعده الحاكم غير مناسب في حضرته فيطردهم فيذكر: "حدثني الحسن بن علي حزور الفيروزكوهي قال: إني بعت جارية هندية بعدن على رجل إسكندراني بقيت عنده مدة سبعة أيام فلما شبع استعيب فيها وأحضرني إلى الحاكم وادعى علي بالعيب. فقال الحاكم: وما عيبها؟ قال: هي واسعة الرحم رهلة الفرج. فقلت له: إذا كان ايرك

[1] نفسه /52.

صغيرا وأنت تتباخل على الجارية بشرى الماء فما يصنع رحمها السمين الأبيض المنتوف الطيب. فلما سمعهما الحاكم قال لمن حضر: أخرجوهم! فخرجنا ورحت إلى شغلي وبقيت الجارية في كيسة ولم ادر ما فعل الدهر بهما"[1].

وعند تناوله لحكاية خياط صار له شان اخر من امتلاك صنعاء بعد ضعف حكامها يتحدث عنه عندما كان خياطاً ويفصل لهن ثيابا تعرف بالفتوحي "وكان مولع بحب النساء يفصل لهم الفتوحى وكان يوقف النساء حلقة دائرة ويدخل هو في كم إحداهن ويتفرج على نهودها وأعكانها وأركانها ويمسك قماشها ويخرج من كمها إلى كم صاحبتها، ولا يزال إلى أن يدور على الجميع، ولم تتكشف إحداهن إلى كل عندها ما عند صاحبتها وكل بروحها مشغولة. ويسمى الفتوحى لاستفتاح صنعاء ويقال إنه فتح الخياط وكان يلبسوه نساء بغداد إلى أواخر دولة الإمام أبي محمد الحسن المستضيء بنور الله أمير المؤمنين، ونسخت في أيام دولة أبي العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين، ولبس نساء جميع العرب وجميع التركمان والكرد والباذج ونساء أهل سيستان إلى الآن منه."

ومما يذكره من مشاهداته في قرى في جزر وبلدات زارها وكيف انهم يسلبون ويوضح بعض مشاهداته، ففي العام 619هـ حيث كان بعض السراق يقيمون متحالفين مع اهل بعض القرى ويقيمون عندهم فاعلين الافاعيل بنساءهم ويتقاسمون السرقات بينهم.

قال أبن المجاور: "سافرت من الديبول إلى عدن في مركب الناخوذا خوجة نجيب الدين محمود بن أبي القاسم البغوي شركة الشيخ عبد الغني بن أبي الفرج البغدادي آخر سنة ثمان عشرة وستمائة ورأيت الطيور السبعة في لجة البحر، فلما أصبحنا رأينا الجزيرة. وفي الجزيرة أربع مدن كبار منه السوق وفاتك وموري وما حولها من القرى قرية ما شاء الله. وهي جزيرة والجبل مستدير حوله وقد صعد ذروة الجبل إلى الأفق، وقد سكن الجبل قوم جبالية عصاة على أهل الوطاء. وهي ذات مزارع وعمائر ومدن وقرى لم يعرفوا بعضهم بعضا. وقد علق كل في عنقه صليب كل على قدره. وفي أطراف الجزيرة سواحل كثيرة مثل بندر موسى. ورأس ما في سقطرى وغاية معاش أهل هذه السواحل مع السراق لان السراق ينزلون عندهم ويقيمون عندهم مدة ستة شهور يبيعون عليهم الكسب ويأكلون ويشربون وينيكون نساءهم، وهم قوم جلح قوادون وعجائزهم أقود من رجالهم وفي رجالهم من أقود من اسود في رأس جمل هائج."[2]

ويتناول المقريزي ما رآه في سوق الشماعين ووجود البغايا فيه وكن كما يبدو يلبسن زيا معروفا فيقول: "أدركت سوق الشماعين من الجانبين معمور الحوانيت بالشموع الموكبية والفانوسية والطوافات، لا تزال حوانيته مفتحة إلى نصف الليل، وكان يجلس به في الليل بغايا يقال لهن زعيرات الشماعين، لهن سيما يعرفن بها، وزي يتميزن به، وهو لبس الملاءات الطرح وفي أرجلهن سراويل من أديم أحمر، وكن يعانين الزعارة ويقفن مع الرجال المشالقين في وقت لعبهم، وفيهن من تحمل الحديد معها[3]." وفي كلامه عن مدينة مرباط الواقعة بين حضرموت وعمان، وهي فرضة ظفار، لأن ظفار مرساها غير جيد، بها اللبان يحمل منها إلى سائر البلدان وهو غلة للملك. أهلها عرب موصوفون بقلة الغيرة، وذلك ان كل ليلة نساؤهم يخرجن إلى خارج المدينة، ويسامرن الرجال الأجانب، ويجالسنهم ويلاعبنهم إلى نصف الليل، فيجوز الرجل على زوجته وأخته وأمه وهي تلاعب آخر وتحادثه فيعرض عنها ويمشي إلى زوجة غيره يحادثها.

وقال صاحب معجم البلدان: رأيت بجزيرة قيس رجلا عاقلا أديبا من مرباط، فقلت له: بلغني منكم حديث أنكرته. فقال: لعلك تقول عن السمر؟ فقلت: نعم أخبرني أصحيح أم لا؟ فقال: إنه صحيح! وبالله أقسم إنه لقبيح، ولكن على ذلك نشأنا، ولو استطعنا لأزلناه ولكن لا سبيل إلى إزالته[4]!

ويورد ابن بطوطة كيف ان بعض النساء يستطعن فعل ما هو معيب بحماية السلطان وقد تكون حادثة فردية منعزلة فيقول "كنت يوما عند السلطان أبي محمد بن نبهان فأتته امرأة صغيرة السن حسنة الصورة بادية الوجه فوقفت بين يديه وقالت يا أبا محمد: طغى

[1] نفسه /57.
[2] نفسه/98.
[3] المقريزي/ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار/175/3.
[4] القزويني/ اثار البلاد-/208.

الشيطان في رأسي فقال لها اذهبي واطردي الشيطان، فقالت له: لا أستطيع وأنا في جوارك يا أبا محمد، فقال لها: اذهبي فافعلي ما شئت. فذكر لي لما انصرفت عنه أن هذه ومن فعل مثل فعلها تكون في جوار السلطان وتذهب للفساد ولا يقدر أبوها ولا ذوو قرابتها أن يغيروا عليها وإن قتلوها قتلوا بها لأنها في جوار السلطان"[1].

ورغم ان ابن بطوطة يعطي في اماكن اخرى صورا لنساء عمانيات عاملات وذوات تاثير ايجابي في المجتمع فلا يمكننا الزعم بان الرواية الانفة تدل على فساد في المجتمع العماني[2].

يلاحظ بنسالم حميش اهتمامات ابن بطوطة النسائية بناءً على ما دونه في رحلته التي استغرقت ما يقرب من ثلاثين عاما فهو يهتم بالمرآة كثيرا فيتقصى اشاراته الى جمال نساء مكة وطيب عطرهن لكنه يستفيض قليلا عندما يصل الى وسط اسيا في بلاد الترك فيقول عن محمد اوزبك خان انه كان يفضل احدى زوجاته لانه كان يجدها بكرا في كل ليلة وفي لاحظ جمال النساء الفائق في مدينة دولة اباد ومهارات نسائهم في الفراش ومالهن من طيب الخلوة والمعرفة بحركات الجماع ما ليس لغيرهن"، ولاحظ كذلك اصطحابه لجواريه عندما ارسله ملك الصين في سفينة بها غرف منعزلة ولا يشاركه فيها احد "لأجل الجواري"، وكان من عادته انه لا يسافر الا بهن.كما يمكن ملاحظة مدحه لنساء جزر المالديف وحسن معاشرتهن وانه تزوج على احداهن اخرى لكنها استمرت تبخره وتطيبه وانه كان له هناك اربع نسوة وجوار يطوف عليهن كل يوم ويبيت عند من تكون ليلتها[3].

المبحث الثالث

الطوالع والاحجار والنباتات والطلاسم واثرها حسب الرحالة والجغرافيين

يمكننا ان نجد كتابات متنوعة تربط بين بعض النباتات وبعض الاحجار وطلاسم تذكر دور هذه في افعال تتعلق بقوة الباه او في زيادة الرغبة الجنسية او ان لها تأثيرات فوق الاعتيادية في هذ المجال، فكتب الصيدلة القديمة المعتمدة على النباتات والاعشاب الطبية تتناول ذلك وتسهب في وصف دور نباتات او اسماك في هذا الامر، اما الاحجار ودورها فالأمر كذلك، ويتناول الرحالة الامر في صفحات عدة من رحلاتهم، فقد تكون للأحجار تأثير مباشر عن طريق مساحيق بلوراتها، عن طريق الفم او عن طريق الذر والتكحيل او كتأثير نفسي عندما تكون معلقة على جسم حاملها كحجاب او تميمة[4]، كذلك الحال فيما يخص الابراج اذ يرى بعض الرحالة علاقة بين وجود اقليم ما في مكان وبتأثير النجوم يكون ذا سلوك يؤثر البرج في سلوكه. حيث يذكر العمري اقاليم الارض التي سماها العامرة وذكر صفات كل اقليم يفسر سلوكهم بصورة عامة طبقا لما يعيشون به من طقس وما يوفقها من بروج حيث يعتقد اثر ذلك في ما يسلكونه وما يؤثر في صفاتهم وتصرفهم وشدتهم وضعفهم فأوله يسميه "اورس" وهي تشمل امم اوربا الحالية كبريطانية وجرمانية وصقلية وطونيا وهم يحسنون اخذ السلاح واصحاب زي ولباس وهم ايضا " يحبون مجامعة الذكران ويغارون عليهم ولا يرون ذلك شينا ولا مأثما. وأنفسهم مذكرة وليست لهم غيره على النساء، ويهون عليهم الجماع" اما الربع الثاني فهو الى الجنوب ولم يحدد الامكنة لكنه يوحي بانه يقصد افريقيا فقال فيها: " بلادهم حارة ويحبون المجامعة والرقى والرقص واللهو والمجون من أجل الزهرة أيضا. ولا يجامعون الذكران، وينكحون أمهاتهم ويولدونهم ويرون أن ذلك تعظيم لهن"، اما وسط الارض ومنها ": أروميا وقيلسوسينا وتوريا وحلبايا" فانفسهم عظيمة وهم مقاتلون اشداء، والربع الثالث" فمنها: أرمينية الأولى والثانية والثالثة والرابعة. والبلدان التي بين الشمال والصبا" وهم يشبهون المجوس وعباداتهم وآدابهم حسنة. ولهم ملاحة وقبول. ماضين للحق، مقتصدين في مجامعة النساء[5] "

[1] ابن بطوطة/209/1
[2] بو تشيش/ 28.
[3] حميش/ عن المهارات الجنسية للرحالة ابن بطوطة، www.hepres.com 3 مارس 2016.
[4] السباهي, كشف الاسرار عن سحر الاحجار/35.
[5] ابن الفقيه /البلدان/٤٣٢.

اما الرابع: " قونيه وميدنية وإفريقية ومور طلينا وطنجة ومراميه" فهم "فلذلك أهل هذه البلاد يملكون رجلا وامرأة. فأما الرجل فيملك الرجال، والمرأة تملك النساء. ويحبون مجامعة الإناث وعامة نكاحهم زنى. ويحبون الزينة والمال، ويتزينون بزي النساء من أجل الزهرة. وهم أهل غش وسحر وجرأة [في إلقاء] أنفسهم في المهلكة من أجل المريخ وولايته إياهم "اما اهل" وسقى وتمريقى والبرط السفلى واطرز المغرب ومارثها والحبشة والاسطون" هم أهل تدين وتعظيم الآلهة. يعرفون حقها ويحبون النياحة. ولهم آداب كبيرة مختلفة وأديان متفرقة. وإذا ملكوا كانوا أذلاء جبناء صابرين. وإذا ملكوا كانوا أهل طيب أنفس وعطية كثيرة. وخلقهم على نحو طبيعة أرضهم، وعامة ذكرانهم ضعفاء مؤنثون يتركون الجماع من حيث ينبغي ويأتون النساء من حيث لا ينبغي[1].

ونجد هنا ابن المجاور يبرر عفاف المرأة بطالعها فالنساء بزعمه يكون سلوكها حسب طالعها الذي ولدت فيه فمن كان طالعها السنبلة تكن عفيفة، لذا فعلت المرأة بمن راودها ذلك كونها عفيفة مصونة[2].

واذا كان الطالع يحدد مدى عفة امراة عن طالع امرأة سواها فأننا نجد العجائبي في انواع الاحجار وخاصياتها ومنها القدرة على تهييج الجماع وهذا الامر عن نسق في التفكير يضع ما يسلكه الانسان بزعم وجود مؤثرات عليه من خارج ذاته فنجد الابراج او الطلاسم او النجوم ذات تأثير كبير عليه وهو ما سنتناوله في فقرات لاحقة ففيما يورده من كتاب الاحجار عن اليشب وله رائحة كرائحة الدخان ففيه صفات وخواص عدة منها" وإن علق على امرأة سهلت ولادتها. ويؤتى به من بلاد الهند، ومن بلاد قبرص، وأفضله القبرصي. ومن خواصه أن من لبسه هيج عليه الجماع، وحرك شهوة العشق، ومن وضعه تحت رأسه جامع ما شاء، ولم ير في منامه ما يكره قلبه، ويضيق صدره[3]."

وفي تناوله لاحد وصفات الادهان يذكر "دهنه ينفع من القوة والاسترخاء والفالج، وإذا دهن به القضيب قبل الجماع بعث على الشهوة وأعان على سرعة الإنزال، وصفة دهنه يدق من أصله قدر أوقية ويطبخ في رطل ماء حتى يرجع إلى أوقيتين ويلقى عليه مثلهما زيتا، ويطبخ الجميع حتى ينضب الماء ويبقى الزيت، ثم يصفى ويرفع لوقت الحاجة إليه".

اما التنبول وورقه فيذكر وصفه ابن بطوطة وكيف يعظمه الهنود لفوائد يرونها في القول الاتي: "ولا ثمر للتنبول وإنما المقصود منه ورقه وهو يشبه ورق العليق وأطيبه الأصفر وتجنى أوراقه في كل يوم وأهل الهند يعظمون التنبول تعظيما شديدا وإذا أتى الرجل دار صاحبه فأعطاه خمس ورقات منه فكأنما أعطاه الدنيا وما فيها ولا سيما أن كان أمير ا وكبيرا. وإعطاؤه عندهم أعظم شأنا وأدل على الكرامة من إعطاء الفضة والذهب. وكيفية استعماله أن يؤخذ قبله الفوفل وهو شبه جوز الطيب فيكسر حتى يصير أطرافا صغارا ويجعله الإنسان في فمه ويعلكه ثم يأخذ ورق التنبول فيجعل عليها شيئا من النورة ويمضغها مع الفوفل وخاصيته أنه يطيب النكهة ويذهب بروائح الفم ويهضم الطعام ويقطع ضرر شرب الماء على الريق ويفرح آكله ويعين على الجماع. ويجعله الإنسان عند رأسه ليلا فإذا استيقظ من نومه أو أيقظته زوجته أو جاريته أخذ منه فيذهب بما في فمه من رائحة كريهة. ولقد ذكر لي أن جواري السلطان والأمراء ببلاد الهند لا يأكلن غيره.[4]

ونجد لدى العمري نباتات تعين على الجماع او ان من يأكلها يكون له الولد، فيقول عن النعنع انه يعين على الجماع[5]، اما العاقر قرحا نبات مشهور ويسمى بالبربرية بيغدست وهو يزيد في الجماع وقيل عنه: "دهنه ينفع من اللقوة والاسترخاء والفالج وإذا دهن به القضيب قبل الجماع بعث على الشهوة وأعان على سرعة الإنزال، "[6]. اما بزر الكتان فمع خواصه المتعددة فانه: "وإذا خلط بالعسل والفلفل واستعمل بدل الناطف وأكثر منه حرك شهوة الجماع. وقد يحقن بطبيخه للذع المعى والرحم ولإخراج الفضول. وإذا جلس النساء

[1] نفسه.
[2] نفسه /86.
[3] العمري/ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار/353/22.
[4] ابن بطوطة /202/2.
[5] العمري/مسالك الابصار/69/22.
[6] نفسه /129/22.

في طبيخه نفع من الأورام العارضة في الأرحام، كما ينفع طبيخ الحلبة"[1]. ومن النصائح التي يذكرها العمري والتي قالها تياذوق الطبيب للحجاج بن يوسف الثقفي هي: "أربعة تهدم وربما قتلن–: دخول الحمام على البطنة، والمجامعة على الامتلاء، وأكل القديد الجاف، وشرب الماء البارد على الريق، وما مجامعة العجوز ببعيدة منهن[2]". وعن نبات سماه هايمسونا "هو نبات لا ورق له، يمتد ويعلو رأسه، وعلى قضبانه لزوجة كثيرة على زغب ظاهر عليها، ولهذه القضبان أصول مثل البطيخ الصغار شديدة التدوير وقضبانه ويسلق بالماء والملح مرة وبالماء وحده مرة ثانية، ثم يجفف ويطحن ويخلط معه شيء من دقيق شعير، ويتخذ منه خبز على الطابق. وهو يعين على الجماع، متى أكل إنسان خبزه مع شحم وجامع زوجته ولدت له ولدا ذكرا، مجرب مشهور، ويكون المولود جميلا، صحيح الجسم، كامل الهيئة بإذن الله عز وجل. وأكل خبزه سبعة أيام متوالية يقوي الظهر ويشده، ويقوي القلب، ويحفظ قوة البدن حفظا بليغا"[3].

وينقل العمري عن ثابت ابن قرة نصيحة يقول فيها "ليس على الشيخ أضر من أن يكون له طباخ حاذق، وجارية حسناء، فيستكثر من الطعام، فيسقم، ومن الجماع فيهرم[4]"..

وفي قوله عن بلاد خرخيز "فبلاد كثيرة الخصب والمسافر ومياههم كثيرة وبها أنهار جارية تجري إليهم من ناحية تخوم الصين وأعظم أنهارهم نهر يسمى منخاز وهو كثير الماء عظيم الجري وجريه على الأحجار وقليلا ما يكون فيه الماء راكدا كالعادة في سائر الأودية. ولهم عليه أرحاء يطحنون بها الأرز والحنطة وسائر الحبوب كذلك يطحنونها ويخبزونها وقد يأكلونها طبيخا دون طحن وهم يتقوتون بذلك".

وهذا الوادي ينبت على حافاته شجر العود والقسط الحلو وفيه سمك يسمى الشطرون يفعل في الجماع ما يفعل الاسقنقور (الاسقنقور: ذكره ابن سينا في الادوية المفردة مرتين، وهو ورل مائي، يصاد في نيل مصر، ويقولون انه من نسل التمساح، وشاع عند الاقدمين ان لحمه مقو للباه، وهو عند المحدثين، جنس من العظاء اكبر من السحلية اسمه اسقنقور وسقنقور)[5] [6]

ومن نصائح العمري التي يوردها قال: "لا تكثر الجماع فإنه يقتبس من نار الحياة فليكثر أو يقل". وذكر ايضا "لا تجامع العجوز فإنه يورث الموت فجأة". ولا اعلم ان كانت نصيحة موجهة الى الشيوخ الذين اصبحت نسائهم عجائزا وهل هي دعوة لهؤلاء الشيوخ للزواج من نساء صغيرات فان السياق يوحي بذلك[7].

كيف ونجد العمري مولعا بذكر النباتات والاحجار التي تعين على الباه فينقل عن ارسطو الاتي: "إن الإسكندر أصاب بأفريقية معدن الحجر، وخاصيته أنه إذا أدني من الإنسان أو الحيوان اشتهى الجماع فمنع الناس من حمله إلى معسكره مخافة افتضاح النساء؛ وكسر بعض هذه الأحجار فوجد في جوفه عقربا وصورتها في جانبي الحجر، فمن أمسك من هذا الحجر تحت لسانه أمن العطش. وبأرض مصر حجر من شده على ظهره ثارت به شهوة الوقاع وقويت، ولا تزال تقوى حتى ينحيه[8]."

ويتناول بعد ذلك ما يمكن ان تفيد به ا جزاء الهدهد ويتناول تفاصيل ذلك بالقول:" فقنزعته تعلق على من به وجع الرأس يزول. قال بليناس: من أخذ عينه وجففها وجعلها في دهن، ودهن به وجهه فلا يراه أحد إلا أحبه حبا ما عليه مزيد، وتجعل عينه تحت رأس إنسان فلا ينام ويغلب عليه السهر ما دامت تحت رأسه، وإذا شددتها على أحد تذكر جميع ما كان نسيه، وتعلق على صاحب الجذام تنفعه نفعا بينا. لسانه يحمله الإنسان معه لا يظفر به عدو ما دام معه، وإذا علقت عينه مع لسانه على إنسان يدفع عنه غلبة السهو

[1] انفسه /150/22.
[2] نفسه/332/9.
[3] نفسه 75/22.
[4] نفسه/419/9.
[5] تقي الدين/ مصطلحات معجم الصيدلة والعقاقير في كتاب القانون لابن سينا/1/ 89. www.arabacacademy.gov ".
[6] ابن بطوطة/الرحلة/٥١٩.
[7] العمري/ 9 /334.
[8] نفسه/198/22.

والنسيان ويزيد في فهمه وذكائه وحذقه. قلبه إذا علق على إنسان زاد في قوة الباه وشهوة الجماع[1]. ونرى في هذا النص عجائب استعمال اجزاء طائر الهدهد."

وفي مجال اخر نرى الرحالة يتناولون ما يمكن ان تفعله امكنة من عجائب في المجال الذي نتناوله او سواه خارج مجال النباتات والاحجار، فيذكر ابن الفقيه "وعلى سبعة أميال من منبج حمة. عليها قبة تسمى المدير، وعلى شفير الحمة صورة رجل من حجر أسود، تزعم النساء أن كل من لا تلد تحك فرجها بأنف الصورة فيولد لها، وفيها حمام يقال له حمام الصوابي فيه صورة رجل حجر يخرج ماء الحمام من إحليله". عمل في أمسوس صورة امرأة جالسة في حجرها صبي ترضعه، وكانت المرأة من نساء مصر إذا أصابتها علة في موضع من جسمها أتت هذه الصورة، ومسحت ذلك الموضع من جسدها بمثل ذلك الموضع من الصورة، فتزول عنها العلة، وإن قل لبنها مسحت ثديها بثدي الصورة فيغزر لبنها، وإن قل حيضها مسحت فرجها بفرج الصورة فيكثر حيضها، وإن كثر دمها مسحت أسفل ركبها بمثل ذلك من الصورة، وإن عسرت ولادة امرأة مسحت رأس الصبي الذي في حجر الصورة، فتضع حملها، وإن أرادت التحبب إلى زوجها مسحت وجهها وتقول: افعلي كذا وكذا، فإذا وضعت الزانية يدها عليها ارتعدت حتى تتوب، ولم تزل هذه الصورة إلى أن أزالها الطوفان، وفي كتب القبط: أنها وجدت بعد الطوفان، وأن أكثر الناس عبدوها[2].

خاتمة ومقتربات اخرى

تعددت ممارسات السلوك الجنسي في مدونات الرحالة الذين وصفوها بطرق مختلفة لا يمكن القول انها كانت دقيقة او انها كانت وقائع لا يطعن بها فالفرق كبير بين ما يرى وما يعبر عنه تدوينا، فتتضخم الصور وتفارق الواقعة المؤسسة تدوينا تفاصيلها طبقا لتصورات الكاتب، ويمكننا القول ان ثقافة الرحالة وهنا المعني بالثقافة: الذهنية والاسلوب والنشأة واسلوب التفكير الذي جبل عليه المؤلف هو ما يوجهه من الناحية القيمية، كذلك محاولة تثبيت العجائبي في مؤلفه لأغراض التشويق، او لأغراض تتصل بإثبات صحة سلوكه ومعتقده مقارنة بأقوام اخرى اقل تمدنا في سلوكهم ودوافع اخرى كثيرة، ويمكننا ايضا النظر في ما يعتقده الرحالة طبقا لثقافة واسلوب تفكير عصرهم في الاحجار والنباتات او الطلاسم في تنشيط الدافع الجنسي.

يمكننا ايضا ان نشير الى ما تحمله الرحلات من موضوعات جديرة بالبحث في مجال أثنوغرافيا عدة منها طعام الشعوب وملابسهم وعاداتهم الاجتماعية يمكننا هنا ان نشير الى جدارتها بالبحث والتدقيق. ومن الله التوفيق.

[1] نفسه/362/1.
[2] نفسه/ 1 / 559.

المصادر والمراجع:

1. ابراهيم، عبد الله، عالم القرون الوسطى في اعين المسلمين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2007م.
2. ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله (المتوفى: 779هـ): رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، أكاديمية المملكة المغربية، (الرباط، 1417 هـ).
3. بو تشيش، ابراهيم القادري، المجتمع العماني عاداته وتقاليده من خلال رحلة ابن بطوطة، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج/28/العدد/1. تموز/يوليو/سبتمبر/1999م.
4. تقي الدين, وفاء، مصطلحات معجم الصيدلة والعقاقير في كتاب القانون لابن سينا ج:1. www.arabacacademy.gov
5. التوزاني، خالد، الرحلة وفتنة العجيب بين الكتابة والتلقي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت، 2017م).
6. حميش، بن سالم، عن المهارات الجنسية للرحالة ابن بطوطة، (www.hepres.com 3 مارس 2016)
7. الخامسة، علاوي، العجائبية في ادب الرحلات، رحلة ابن فضلان انموذجا، رسالة ماجستير غير منشورة كلية اللغات والآداب، جامعة منتوري، قسنطينة، (الجزائر، 2005م).
8. درنوني, سليم، و. د.علي رحماني، فصل المقال فيما بين ادب الرحلة والأثنوجرافيا من اتصال، مجلة التغير الاجتماعي، العدد الرابع، د.ت.
9. السباهي، عبد الاله، كشف الاسرار عن سحر الاحجار، دار النمير، (دمشق، 2010م).
10. الشقران، د. نهلة، خطاب ادب الرحلات في القرن الرابع الهجري، دار الان، (عمان، 2015م).
11. صليبيا, جميل, المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م.
12. العمري، شهاب الدين,، أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي، (المتوفى: 749هـ): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، (أبو ظبي، 1423هـ).
13. فهيم, حسين محمد، ادب الرحلات، عالم المعرفة، العدد /138، (الكويت، / 1989م).
14. ابن الفقيه، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني (ت 365): البلدان, تح: يوسف الهادي عالم الكتب، (بيروت، 1416هـ-1996م).
15. قنديل, فؤاد، ادب الرحلة في التراث العربي، الدار العربية للكتاب، (القاهرة، 2001م).
16. كاتب مجهول (توفي: ق 6هـ)، الاستبصار في عجائب الأمصار المؤلف: دار الشؤون الثقافية، (بغداد ، 1986م.)
17. ابن المجاور الشيباني الدمشقي, جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب ابن محمد (المتوفى: 690هـ): تاريخ المستبصر، د.م، د.ت.
18. ابن منظور, محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي (المتوفى: 711هـ): لسان العرب, الناشر: دار صادر، (بيروت - 1414هـ).
19. المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين (المتوفى: 845هـ)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المؤلف: دار الكتب العلمية، (بيروت ، 1418هـ).
20. اليبوري, احمد، الاخر في الرحلة المراكشية لمحمد بن الموقت، بحث منشور ضمن ندوة الرحالة العرب والمسلمون، اكتشاف الاخر المغرب منطلقا وموئلا، وزارة الثقافة، (الرباط، نونبر، 2003م).